الضحك

كتاب ألفه هنرى برجسون

وعربه الأستاذان سامى الدروبى وعبدالله عبدالنديم.

والكتاب يبحث فى المضحك عامة... مضحك الأشكال، ومضحك الحركات ومضحك الظروف ومضحك الكلمات ومضحك الطباع... وقوة الإمتداد فى المضحك.

علام يدل الضحك؟ وما هو جوهر المضحك؟ ما هو العنصر المشترك بين كثرة من «مهرج» ونكته فى لفظ، ولُبسّه فى مهزلة، ومشهد لطيف فى ملهاة؟ أى تقطير ينتهى بنا إلى تلك الخلاصة والتباسة الواحدة التى تستمد منها هذه المركبات المختلفة رائحتها المرذولة أو عبقها الناعم؟.

يقول المؤلف (إن للعبث الهزلى معقوليته الخاصة حتى فى أبعد فلتاته، وهو فى جنونه ذومنهج، وهو حالم، نعم، ولكنه يستحضر فى الحلم رؤى ماتلبث أن يقبلها ويفهمها مجتمع برمته. فكيف لايفيدنا فى معرفة أساليب الخيال الإنسانى بوجه عام، وأساليب الخيال الاجتماعى الشعبى بوجه خاص؟ إنه ابن الحياة الواقعية ونسيب الفن، فكيف لايحدثنا عن الفن وعن الحياة؟).

وهو يرى أن الشئ يزداد إضحاكا بقدر ما يمكن أن تفسر سببه تفسيرا طبيعيا... إن الذى يضحكنا فى هيئة شخص هو وضع اعتاده واحتفظ به ولكن ضحكنا يزداد إذا استطعنا أن نربط هذه الصفات بسبب عميق.

وهنا نفهم المضحك فى «الكاريكاتير» فالهيئة مهما انتظمت، ومهما انسجمت خطوطها ومرنت حركاتها، لايمكن أن يكون التوازن فيها تاما تماما مطلقا، ففيها أبدا نذير باعوجاج، وايذان بجعدة.. أى فيها تشوه ما، كان يمكن أن يعيب الطبيعة وفن الكاريكاتير يقوم علي إدراك هذه الحركة التى لاتدرك يضخمها ويجعلها مرئية لكل الناس، انه يشوه نماذجه علي نحو ما كان يمكن أن تتشوه من تلقاء نفسها لو ذهبت بتجعدها إلى أقصاه.

وهذا الفن فن مبالغة من غير شك.. ولكننا نسئ تعريفه أيما إساءة، إذا زعمنا المبالغة غايته.. فرب صورة «كاريكاتيرية» أكثر شبها بصاحبها من صورة «فوتوغرافية» ورب صورة كاريكاتيرية

لاترى فيها أثرا للمبالغة.. ولقد تسرف فى المبالغة إلى غير حد ثم لاتحصل على صورة كاريكاتيرية حقة.. فلكى تكون المبالغة مضحكة، لا ينبغى أن تبدو غاية، بل مجرد وسيلة يستخدمها الفنان فى إبراز هذا العوج الذى يراه فى الطبيعة على حال التحفز.

ومن عناصر المضحك: التكرار.

إن كثيرا من مسرحيات موليير تعرض لنا مركبا واحدا من الأحداث، يتكرر من أول الملهاة إلى آخرها فمدرسة النساء L' Ecole des Femmes لاتزيد على أن تعيد وتكرر أثرا ذا ثلاثة أزمان.

وهذا التعاقب الدورى المنظم نفسه نراه فى «مدرسة الأزواج» L´ Ecole des Maris وفى «الطائش» L' Etourdi على أنه، مهما يكن من شأن الشخصيات التى تنظَّم فيما بينها المواقف المتناظرة، فثمت فرق عميق، يظل قائما، فيما يبدو، بين الملهاة الكلاسيكية والمسرح المعاصر. L´Ecole des Maris.

ومن عناصر المضحك، القلب أى قلب المواقف وعكس الأدوار.. فيضحكنا المتهم الذى يحدث القاضى فى الأخلاق، والطفل الذى يلقى دروسا على أبويه، وكل مايندرج تحت عنوان: «العالم المقلوب» أو مانسميه «الحال المقلوب».

ومن عناصر المضحك، تداخل السلاسل وهذا التداخل يقوم على الالتباس. وقد استخدم «لابيش» هذه الطريقة فى شتى صورها.. فتارة يبدأ بتأليف السلاسل المستقلة، ثم يلهو بجعلها تتداخل فيما بينها.

وعند الحديث عن مضحك الكلمات، نراه يميز بين المضحك الذى تعبر عنه اللغة وبين المضحك الذى تخلقه اللغة أما الأول فمن الممكن عند الاقتضاء، أن يترجم إلى لغة أخرى. ولوفقد الجزء الأعظم من رونقه بانتقاله إلى مجتمع جديد مختلف عن الأول بعاداته، وآدابه، وبتداعيات أفكاره على وجه الخصوص.. وأما الثانى فهو، بوجه عام، ممتنع على الترجمة ذلك أنه يرجع إلى بنية الجملة أو اصطفاء الكلمات.

نأتى إلى مضحك الطباع... ويعنى هذا أن يصور عن الشخصية على غير علم منها حركة لا إرادية أو كلمة غير واعية فكل ذهول مضحك وكلما عمق هذا الذهول كانت الملهاة أرفع...

فالذهول المنظم الذى نلاحظة فى «دون كيشوت» مثلا، هو أعظم الأمور التى يمكن تصورها إضحاكا، بل هو الضحك نفسه عرفناه قريبا من منبعه.

ومن الطريف تعريف المؤلف، الضحك بأنه تأديب قبل كل شئ... وقد وجد ليخزى فلابد أن يشعر موضوعه بشعور مؤلم... والمجتمع ينتقم به ممن يقسون عليه، فلن يبلغ إذن غايته إذا كان يحمل طابع العطف والطيبه.

لقد استخدمت الطبيعة، الشر فى سبيل الخير... والخير هو الذى عنانا فرأينا أن المجتمع كلما تقدم أوجد فى أعضائه، مرونه فى التلاؤم لاتزال تزداد... وهنا يزداد توازنه فى الأعماق.. ويطرد إلى سطحه شيئا فشيئا هذه الاضطرابات التى لابد منها فى هذه الكتلة الضخمة، وهنا يقوم الضحك بوظيفة نافعة إذ يرسم شكل هذه التموجات.

كذلك الأمواج تصطرع على سطح البحر فى غيرتهادن، بينما تلتزم الطبقات الدنيا سلاما عميقا. إن الأمواج تتصادم وتتعاكس، وتسعى إلى توازنها... ونرى زبدا أبيض، خفيفا فرحا، مرحا، يخف بحواشيها المتغيرة.. وإذ ترتد الموجة تخلف أحيانا على رمل الساحل قليلا من هذا الزبد. فيأتى الطفل الذى يلعب قريبا فيتناول منه قبضة، فما يلبث أن يستغرب بعد لحظة كيف لايجد فى كفه إلا بضع قطرات ماء، ولكنه ماء أشد ملوحة وأشد مرارة من ماء الموجة التى حملته.

إن الضحك ينشأ كما ينشأ هذا الزبد: إنه نذير الثورات السطحية فى ظاهر الحياة الاجتماعية، يرتسم فيه على الفور شكل هذه الاهتزازات المتحرك. إنه هو الآخر رغوة مالحة. وكالرغوة يفور من مرح. ولكن الفيلسوف الذى يتناول شيئا منه ليذوق طعمه، يجد أحيانا فى قليل من مادته غير يسير من المرارة.

ومن هذا اللون ضحك الشعب المصرى.

***

بقيت كلمة.. إن هذا الكتاب طبع ثلاثا وعشرين طبعة.. وعنوانه يبدو سهلا ولكنه دراسه علمية جادة... وصعبه أيضا وهى بهذا جديرة بالقراءة والتأمل والاستشفاف.